الفصل الرابع

هروب النخب العلمية (هجرة العقول)

" إن لكل عالم وخبير عربي أسبابه الخاصة التي دفعته إلى الهجرة وهذه تضاف إلى الأسباب العامة المشتركة في الوطن العربي، حيث لا احترام للعلم والعلماء ولا تتوافر البيئة المناسبة للبحث العلمي والإبداع"

(فاروق الباز)

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

هروب النخب العلمية (هجرة العقول)

هجرة أم هروب[1] ؟

يستخدم الكتّاب والباحثون مصطلحات عدة للتعبير عن ظاهرة هروب النخب العلمية، فيقولون: " هجرة الأدمغة"، و"هجرة الكفاءات"، و"نزيف العقول"، و"إهدار الطاقات"، و"هجرة العلماء"، و"العقول المهاجرة"، و"العقول المغادرة"، و"الألباب المسافرة"، و"رحيل المعرفة"، و"فرار العقول"، و"زهوق الخبرة"، و"سرقة العلماء"، و"اقتناص العلم"، و"نهب المعرفة"، و"قنص الكفاءات"، و"تنقل العلم"، و"حركية الباحثين"، و"حركة الأطر"، و"استقطاب العقول"، و"جلب الأدمغة"، و"كسب العقول"، و"إهدار العقول"، وغير ذلك من المصطلحات التي تعبر عن موقف مسبق من الظاهرة، وكلها تعاريف متداولة لنعت ظاهرة ما يوصف من طرف الكثير، الخبير وغير الخبير، بـ"هروب النخب"، وانتقالها من بلدها الأصل – لظروف وأسباب شتى سنتطرق لأهمها – للعمل مدة طويلة أو البقاء في بلدان أخرى.

وهذه المصطلحات – بشكل عام – ظهرت في الستينيات وكان يقصد بها هجرة الأوروبيين ذوي الكفاءات العالية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ومنذ ذلك الوقت، اتسعت هذه الظاهرة في أغلب مناطق العالم، وفقد نتيجتها الاتحاد السوفييتي (سابقاً) ٤٥٠,٠٠٠ باحث، كان ٥٠% منهم من الفاعلين الحقيقيين الذين شهدوا انهيار جدار برلين. وتتكرر ظاهرة مشابهة في أغلب الدول النامية التي تتمتع بنظام دراسي جيد.. وكان أول من استعمل لفظة "هجرة العقول" أو"نزيف الأدمغة" وزير التعليم البريطاني الأسبق اللورد هيلشام عام ١٩٦٣م عندما قال: " إن الولايات المتحدة تعيش على حساب عقول أناس آخرين"[2]، وكان يعبر عن هجرة الكفاءات التي سببت لبريطانيا مشاكل اقتصادية صعبة ابتداء من الستينيات[3]

ضبط المصطلح:

نرى أن مصطلح " هجرة العقول " يحمل معنى إيجابياً في الرؤية الشرعية، ويضفي جلالاً على ظاهرة سلبية بل ومدمرة، فقد استُخدم هذا المصطلح للتعبير عن انتقال خاتم الأنبياء – صلى الله عليه وسلم – بنفسه الكريمة وبالدعوة من مكة إلى المدينة المنورة، وكذلك الهجرة في سنوات الدعوة الأولى إلى الحبشة، " وهي شرعة شرعها المولى جل وعلا، وجعلها جهاداً ومجاهدة واجتهاداً لتغيير الواقع المهاجر منه، وتحقيق الهدف، وتجاوز حالة الضعف والرقود، والاستنقاع الحضاري، والركون إلى الذين ظلموا... هي حركة إيجابية قاصدة، وخطة محكمة، وعمل محكوم بنية واضحة الأهداف، وهي أشبه ما تكون بتحرف لقتال أو تحيز لفئة للخروج من حال الذل.. والناظر في الهجرة بكل أبعادها الشرعية وتطبيقاتها العملية، وعبر القرون؛ يبصر أنها ليست ظاهرة سلبية هروبية انسحابية "(٤).

ولكن مصطلح " هجرة العقول" – الذي نتحدث عنه – يعبر عن هجرة بلا عودة.. كما أنها عملية مشبوهة من الناحية الشرعية، على أقل الظروف، إذ أن هذه العقول تخدم في كثير من الأحيان المشروع الغربي في الحرب على الإسلام والمخططات الصهيوأمريكة في المشرق العربي والإسلامي ! سواءً بشكل مباشر أو غير مباشر..

أضف إلى ذلك أن مصطلح "هجرة العقول" يحمل في طياته تهويلاً وتخويفاً لا يتجانسان مع الظاهرة، فهل هي فعلاً عقول مهاجرة، أم قدرات وطاقات هاربة؟

أما مصطلح "نزيف العقول"، فهو يعبر بأسلوب بلاغي دقيق عن جسم العالم العربي والإسلامي بقوته وإمكانياته الضخمة عندما ينزف بهذا القدر وبهذه الطريقة، هذه القدرات والخبرات العلمية.. فأنه يصبح مصاباً – كتعبير طبي – بالأنيميا أو فقر الدم، ولا يمكن أن نجد له العلاج إلا بإعطاء الدفعات مرة ثانية وبمعالجته.. في حين يستمر النزيف الذي يهدم ما قد بُني على مدار السنين.. وبالطبع فإن هذا المصطلح يعبر عن الظاهرة تعبيراً شاملاً وكاملاً، لنفس سبب مصطلح "هجرة العقول"

أما مصطلح " سرقة العقول"؛ فهو في شقه الأول (سرقة) يركز على دور السارق دون"شمول وتوصيف" دور المجتمعات العربية والإسلامية الطاردة، هذا في شقه الأول. أما في شقه الثاني (العقول)؛ فهو ينزع الأمر من محتواه، فالأمر ليس مجرد "عقول" وفقط، والتعبير بـ " العقول" يستشف منه التركيز على الجانب العقلي العلمي والتقني

والتطبيقي دون الجانب العقدي والحضاري والسياسي والاقتصادي والفكري للنخب.. منابعها وأصولها وتخصصاتها أو دورها الشامل في مجتمعاتها[٥].

وفي ضوء ما سبق؛ فإننا نرى أن مصطلح "هروب النُّخب" هو أفضل المصطلحات في التعبير عن الظاهرة من زاوية توسيعه لمفهوم الظاهرة؛ فهو لا يقصرها على العقول العلمية، بل يوسع المفهوم ليشمل النخب من جميع التخصصات، وهو لا ينطبق عليه ما سبق الإشارة إليه في مصطلح «الهجرة» الذي يضفي سماً لفكرة الهروب.. وتعبير "هروب النُّخب" يقدم الوصف الصحيح للظاهرة.. فهو في شقه الأول (هروب) يوصِّف حالة من يتعلمون في بلادهم ويذهبون إلى بلاد الغرب لنيل مزيد من العلم والدرجات، من خلال إنفاق مجتمعاتهم العربية والإسلامية عليهم بهدف أن يعودوا ليطوروا المجالات التي تخصصوا فيها، لكنهم يتركون بلادهم ومجاهدها في مواجهة خصومها أو أعدائها، ويهربون ليطوروا مجتمعات الخصوم الحضاريين؛ بما ينعكس على أمتهم بالضعف، وبطبيعة الحال على الخصوم بالقوة في الصراع ضد أمتهم. و"الهروب"هنا يشمل الهروب من مواجهة واقع الأمة في داخلها؛ أي الهروب من العمل على تغييره؛ والشروع في الإصلاح، ذلك أن الهروب يعني استمرار الظاهرة نفسها، واستمرار الأسباب نفسها دون مواجهتها؛ حيث يلجأ الهارب إلى الأسلوب الفردي ليحل مشكلته هو ولو على حساب مصالح الأمة...وهو في شقه الثاني (النخب) يوسع مفهوم هؤلاء الهاربين من تأدية ما عليهم من واجبات تجاه بلادهم؛ فلا يقصرها على العقول العلمية وإنما يوسعها لتشمل كل تخصصات الهاربين[٦].

زاوية التناول:

وكما تتعدد المصطلحات.. تتعدد وتختلف أوجه تناول هذه الظاهرة وزواياها.. فهناك من ينظر إليها من زاوية استنزافها المالي للميزانيات العربية والإسلامية المخصصة للتعليم.. وهناك من ينظر إليها من زاوية ضآلة ما توفره الحكومات – في المجتمعات العربية والإسلامية – من مخصصات مالية للبحث العلمي؛ مقارنة بما تخصصه الدول الغربية.. وهناك من ينظر إليها من زاوية سيطرة البيروقراطية والفساد على عملية البحث العلمي في الدول العربية والإسلامية؛ مقارنة بما يجري في الغرب من إعطاء كل الصلاحيات والحريات لخدمة البحث العلمي.. إلخ.

وكلها وغيرها زوايا للنظر في حد ذاتها صحيحة لكن أياً منها لا يصلح لتقديم تفسير شامل للظاهرة وكيفية مواجهتها[٧]

لكن، عندما ننظر إلى هذه الظاهرة من جميع هذه الزوايا، من خلال جمعها بعضها مع بعض، فإن الرؤية تكون أكثر وضوحاً.. فظاهرة "هروب النخب العلمية" ما هي إلا نتاج لمجموعة من الظواهر والأسباب المتنوعة.. السياسية والاقتصادية والاجتماعية والشخصية.

ومن ثم ينبغي أن تتسم زاوية الطرح والتناول بهذه النظرة الشاملة والمتكاملة، في كون ظاهرة هروب النخب العلمية ناجمة عن عدة أسباب متشابكة.. من أهمها الأسباب السياسية التي تعبر عن سلوك الأنظمة التي تحكم المجتمعات العربية وسياستها نحو البحث العلمي .. والأسباب الاقتصادية التي تعبر عن مستوى المعيشة للباحثين والطلاب، والأسباب الاجتماعية التي تصف مستوى التقدير والتعزيز الاجتماعي الذي يناله الباحثون والطلاب...

إن من أهم المشكلات التي تعبر عن واقع البحث العلمي في مختلف المجتمعات العربية؛ مشكلة " هروب النخب العلمية "..

وتعتبر مشكلة " هروب النخب العلمية " .. واحدة من أكثر المشكلات حضوراً على قائمة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها البلدان النامية، منذ أن باشرت هذه البلدان بوضع البرامج للنهوض بأوضاعها المتردية الموروثة عن حقب طويلة من الحكم الاستعماري والهيمنة الأجنبية .

وتمثل هذه المشكلة، بالنسبة للبلدان العربية جرحاً نازفاً يثخن الجسد العربي، وتقف حاجزاً كبيراً في طريق التنمية العربية من خلال استنزاف العنصر الأثمن، والثروة الأغلى من بين العوامل الضرورية للنهوض بتنمية حقيقية متينة الأسس، قابلة للتطور والاستمرار[٨].

وتشير العديد من النتائج المبنية على الدراسات الميدانية والتقارير الرسمية أن نسبة " النخب الهاربة " قد ازدادت بدرجات متباينة.. فقد أشارت بعض هذه الدراسات إلى أن ٤٥ بالمائة من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم.. وأن ٣٤ بالمائة من الأطباء الأكفاء في بريطانيا هم من العرب.. كما أشارت دراسة

أخرى إلى أن مصر خسرت خلال السنوات الأخيرة ٤٥٠ ألف شاب من حملة المؤهلات العليا من الماجستير والدكتوراه.. ودراسات أخرى تقول: إن هناك ٤١٠٢ عالم مسلم في مختلف علوم المعرفة في مراكز أبحاث غربية مهمة.. ! وأن العالم العربي خسر ٢٠٠ مليار دولار، خلال عام (٢٠٠١)، بسبب هجرة الكفاءات العلمية والعقول العربية للدول الغربية.. ! وأن ٥٤% من الطلاب العرب الذين يدرسون بالخارج لا يعودون إلى بلدانهم!...إلخ..

أسباب هروب النخب العلمية

هروب النخب التي تحمل عقولاً مفكرة ومنتجة والتي تحمل الخبرة والعلم إلى بلدان الغرب مشكلة كبيرة تُعاني منها المجتمعات العربية، وهذه الظاهرة بمثابة احتجاج ضد اللامساواة، وقد أكد ذلك **بول هاريسون**، حيث قال: " الهجرة احتجاج ضد اللامساواة".

وتعتبر أسباب ظاهرة هروب النخب ودوافعها ونتائجها مترابطة مع بعضها البعض.. ويذكر أن ظاهرة هروب النخب قد فسرت بمدرستين:

١- مدرسة فردية: تعالج أسباب الهروب من منظور فردي يتعلق بشروط العمل وامتيازاته وحقوقه.

٢- مدرسة يمكن اعتبارها ظاهرة دولية، وترتبط بتدهور الحياة المدنية، أي تدني الأحوال السياسية والقانونية وتردي الخدمات والأحوال المعيشية [٩].

هذا، وقد ركّز **عاطف قبرصي** على العوامل الاقتصادية كسبب أساسي من أسباب هجرة الكفاءات، وهي أوضاع اقتصادية محصلة لمرور فترة طويلة على إخضاع المجتمعات العربية لسيطرة النظام الرأسمالي الغربي وعلى بروز آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية مهمة أدت إلى تفكك وتحلل العلاقات بين مختلف قطاعات الاقتصاد الوطني في الدول التي خضعت للسيطرة الأجنبية، وعلى ارتباط هذه الأقطار بعلاقات غير متكافئة مع الدول المسيطرة، وللتحرر من هذا الوضع يدعو قبرصي إلى فكّ الارتباط مع الغرب وإعادة تكوين اللحمة بين العرب والمسلمين أنفسهم، ثم بينهم وبين العالم الثالث، ويوضح أن فك الارتباط هذا لا يعني نبذ كل ما له علاقة بالغرب، بل إنه يعني الخروج من النظام السائد المعطل للإرادة العربية، وبالأحرى الإرادة العربية العامة [١٠].

ونتسائل، هل يتم " الهروب " لظروف شخصية ومادية فحسب؟ أم أن النظام السائد – بما فيه النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي أيضاً – هو السبب الرئيسي وراء الهجرة؟..

كثير من المراقبين يعتبرون الفقر من أهم الأسباب التي أدت وتؤدى إلى مزيد من هروب النخب العلمية خارج حدود المجتمعات العربية إلى بلدان الغرب وأوروبا..وهو ينصرف أيضا على فقر الإمكانات والقدرات ونقص الخدمات الأساسية، والانخفاض مستوى المعيشة ونوعية الحياة والبطالة والتهميش وضعف أو انعدام فرص الحراك الاجتماعي، إضافة للاضطهاد وعدم الاستقرار السياسي لأسباب أيديولوجية أو عرقية أو ثقافية، والتعرض لأشكال القهر بدءا بالحرمان من الحقوق السياسية، والاعتقال دون قوانين وكبت الحريات، إلى التعذيب والتصفيات الجسدية.. هذا ويؤكد سعد حافظ (أستاذ الاقتصاد بالمعهد القومي للتخطيط) أن الكفاءات العربية الهاربة منها و المتميزة نشأت فى خلل بيئة معيشية تصنف حسب دليل الفقر البشرى ضمن مجموعة الدول المتوسطة ووفقاً لهذا الدليل فإن أغلب الكفاءات تندرج تحت ظل أصحاب الدخول الثابتة ومع اضطراب معدلات البطالة السنوية و نمو الأسعار بمعدلات متضخمة فقد تولدت عوامل طاردة للنخب العلمية إلى الخارج و نضرب مثلاً بأجور الكادر الجامعي؛ حيث تنضم أجور العاملين بالجامعات والمعاهد العليا والمراكز البحثية في مصر تحت طائفة أصحاب الأجور الثابتة المجمدة باللوائح الأجرية[١١].

ورغم الارتفاع النسبي الظاهري للأجور النقدية للعاملين بالجامعات والمعاهد العليا والمراكز البحثية فهي تقل عن نصف نظيرتها بالكادر القضائي،وعن ١٥% من رواتب العاملين بالهيئات الدبلوماسية، وبينما زادت الأجور لهذه الفئة خلال الفترة من ١٩٨٨ بنحو ٧٠% فقد ارتفع المتوسط العام لتكاليف المعيشة بنحو ٣٥٢% مع حرمانها من المزايا العينية التي كانت تتمتع بها من قبل مثل المسكن الملائم القريب من مكان العمل بتكلفة معقولة. فتشكل ظروف المعيشة أحد الحوافز الأساسية لهروب النخب.

ولكن في حقيقة الأمر هناك ما يسمى بعمليات الطرد وعمليات الجذب. البلدان العربية تطرد علماءها ومفكريها بعدم تغيير الأوضاع القائمة، بعدم إنشاء الجامعات ومراكز الأبحاث وتخصيص الأموال للبحث العلمي والفكري، وبعدم تأمين العمل والحريات الضرورية. هناك اضطهاد للعلماء و الشباب العالم، إضافة إلى كون

المؤسسات الجامعية والبحثية تهيّئ الباحثين والعلماء للهروب ! وقد تبيّن من أبحاث ندوة (**أكوا**) حول هجرة الكفاءات العربية عام ١٩٨١م، أن كليات الطب في الجامعات العربية والجامعات الأجنبية في البلدان العربية كلبنان تهيّئ خريجيها للهروب إلى الخارج أكثر مما تهيّئهم للعمل في الوطن، وما قيل عن الطب يمكن أن يقال عن الهندسة والعلوم الطبيعية والاجتماعية [١٢].

هذا، ويمكن تقسيم أسباب هروب النخب إلى:

أسباب سياسية.

أسباب اقتصادية.

أسباب اجتماعية.

أسباب علمية و ثقافية.

أسباب شخصية.

أولاً- الأسباب السياسية لهروب النخب العلمية

١- عدم الاستقرار السياسي:

فتعيش البلاد العربية مخاضاً عسيراً في الوقت الراهن بسبب محاولة فرض نظام العولمة الجديد، الذي في ظاهره الرحمة و في باطنه العذاب، و يحمل من الشرور أضعاف ما يحمل من الخير لشعوب العالم العربي، أضف لذلك التحدي الصهيوني للأمة الإسلامية، و زرع إسرائيل في قلب الوطن العربي و عدم حسم هذا الصراع لغايته، يفرض على الدول العربية التصدي لذلك، بدلاً من التوجه نحو الاستقرار و التنمية الاقتصادية و الاجتماعية و رفع مستوى المعيشة للمواطنين، مما يؤدي إلى هروب النخب والكفاءات العلمية للخارج، بغية العيش في ظروف أفضل.

٢- أسلوب الفئة الحاكمة و رؤساء المؤسسات و المدراء في الدولة الواحدة التي ترى أن على العلماء و المثقفين التضحية و القبول بمستوى معيشي منخفض في سبيل الدفاع عن الوطن وحمايته، في الوقت الذي نرى فيه أن هذه القيادات لا تحرم نفسها من شيء و ليس لها خطط استراتيجية واضحة و أهداف محددة و سلم للأولويات. كما ترى هذه الفئة أن العلماء و المثقفين يحملون أفكاراً غريبة عن مجتمع تقليدي، و

obeikandl.com

لهذا فإن الكثير من النخب والكفاءات العلمية إما أن تهرب للخارج أو تتقوقع حول نفسها.

٣- النخب والكفاءات العلمية غير مرغوبة في مجتمعها:

يعاني أهل العلم و المعرفة الكثير من نبذ المجتمع لهم، و يعتقد الكثير من أفراد المجتمع أن هؤلاء يحملون بذور الشر لأمتهم و أنهم أصبحوا فاسدين و على المجتمع حماية نفسه منهم، بالإضافة لذلك يشعر هؤلاء بالغبن في كل شيء بدءاً من وضعهم في المراكز التي لا تناسبهم إلى الوضع الاجتماعي و الاقتصادي السيئ، إلى ابتعاد المجتمع عن تقبل آرائهم.. إلخ.

٤- انتشار الرشوة و الفساد و المحسوبية:

ينتشر حالياً بشكل كبير الفساد و الرشوة و المحسوبية في أكثر أماكن العمل، و لازال المجتمع العربي - حالياً - مجتمعاً قبائلياً و عائلياً لا تهمه المصلحة العامة بقدر ما يهمه تسليم المناصب للمقربين و الأقرباء و عدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، مما يخلق لدى العلماء و المثقفين والشباب، شعوراً بالرفض و عدم القبول و القناعة في أوضاعهم،و خاصة أنهم أنفقوا الكثير من حياتهم و أموالهم و أموال عائلاتهم للوصول إلى مراكز علمية تناسب اختصاصهم و تحترم رغباتهم و إرادتهم.

٥- ضعف الحريات العامة:

نتيجة عدم الاستقرار السياسي في أكثر المجتمعات العربية، الخوف من الرأي الآخر، فإن الحريات في أكثر هذه الدول محدودة و يصعب على كثير من المثقفين و العلماء وخاصة الشباب المتحمس منهم - إبداء آرائهم أو الجهر بها، مما يجعلهم من الفئات المنبوذة غير المرغوب في وجودها، حتى أن بعض الدول العربية تسهل لهم فتح أبواب الهجرة، أضف لذلك، عدم توفر المناخ العلمي إذ يحظر على أستاذ الجامعة الالتقاء بأستاذ أجنبي إلا بعد تصريح من مكتب الأمن أو أن يشارك في أي مؤتمر علمي إلا بإذن من وزارة الداخلية [١٣]

هذا، وتؤكد **ابتهال يونس** [١٤]، أن كبت وقمع الحريات فى مصر من أحد الأسباب التى تدفع المصريين إلى الهجرة إلى الخارج و هناك يجدون الحرية والشيء

الأهم هو شعورهم بإنسانيتهم الأمر الذي يجعلهم يشعرون بأهميتهم و أهمية أن يُضيفوا أشياء جديدة للمجتمع من خلال أبحاثهم.

ثانياً- الأسباب الاقتصادية

١- انخفاض مستوى المعيشة للنخب العلمية:

إن مستوى الدخل للباحثين و الكفاءات العلمية هو بوجه عام منخفض و دون مستوى دخل رجال الأعمال و التجار و أصحاب المهن و الفنانين و غيرهم. حتى أنه أقل بكثير من دخل البيروقراطيين المتربعين على عرش المؤسسات العلمية و الإنتاجية والاجتماعية.

لهذا يتطلب على هؤلاء العلماء القبول بالمستوى الأدنى والمنزل المتواضع والحياة المتقشفة، بعد أن يكون قد عاش في دول أجنبية بوضع أفضل و هو طالب وأنه قادر إذا عمل في إحدى هذه الدول على إرسال فائض من دخله إلى أهله يفوق بكثير مجمل دخله في وطنه الأصلي.

٢- عدم الاستقرار الوظيفي:

غالباً ما يوضع رجل العلم و بخاصة العائد من دول أجنبية في مكان لا يناسب اختصاصه، بالإضافة لذلك فهو عرضة في أي وقت لسحب منصبه إلى غيره و قد لا يكون البديل كفؤاً مثله. بالإضافة إلى ذلك يجد أن الخبير الأجنبي يأخذ موقعاً متقدماً أكثر منه و دخلاً مرتفعاً يزيد عن دخله بأضعاف المرات.

٣- البيروقراطية و الروتين و المركزية الشديدة:

تُعاني المجتمعات العربية بمجملها من مشكلة الجهاز الإداري التقليدي المتخلف عن عصره، وبالتالي لا يقدر أهمية العلماء والشباب في عملية التنمية الاقتصادية و الاجتماعية، و غالباً ما يرى البيروقراطي أن رأيه هو الوحيد السديد و بالتالي لا يتحاور مع الآخرين و لا يأخذ بآرائهم. أضف لذلك أن الكثير من العلماء يجدون صعوبات جمة في الوصول إلى احتياجاتهم العلمية بسبب الروتين و المركزية الشديدة.. إن هذه الأوضاع تولد شعوراً لدى الكفاءات بأنها غير قادرة على تحقيق طموحاتها أو المشاركة في صنع القرار، و بالتالي يتولد عندها شعور بعدم الرضا ويرافقها الإحباط

أينما ذهبت وأينما حلت، بينما لا تجد مثل هذه الأمور في الدول المتقدمة التي درست فيها.

ثالثاً- الأسباب الاجتماعية

تلعب الأوضاع الاجتماعية دوراً مهماً و بارزاً في حياة الباحثين و بخاصة العائدين من دول أجنبية، حيث يعتاد هؤلاء على الحياة الغربية و احترام كرامة الإنسان، و الدولة الأجنبية تخضع بكاملها إلى النظام و الانضباط في العمل و الحياة، بينما يجد في وطنه الأصلي العادات البالية و التقاليد المتحجرة و الفوضى العارمة في كل شيء، و عدم صيانة كرامة الإنسان، وصعوبة الزواج و تأسيس عائلة، والشروط التعجيزية التي توضع أمام زواجه، وعدم تقدير المجتمع لأهميته أو لإنجازاته، فيجد نفسه أنه أصبح غريباً في وطنه و أن الدولة التي درس فيها هي أقرب لأن تكون وطناً مناسباً له. أضف لذلك انتشار البطالة في وطنه حتى بين العلماء و عليه الانتظار طويلاً للحصول على وظيفة مناسبة مما يجعله يفكر جدياً في الهجرة أو الهروب من الوطن[١٥].

هذا، ويرى الدكتور أحمد المجدوب [١٦](أستاذ علم الاجتماع بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية و الجنائية – بالقاهرة) أن الظاهرة الاجتماعية التي يُطلق عليها "أعداء النجاح" متفشية بشكل واضح فى مصر والعالم العربي، إذ أنها باتت بمثابة المرض الاجتماعي الذي أدى إلى محاربة الكفاءات و تعطيلهم عن تحقيق نجاحاتهم داخل الوطن و هو الأمر الذي اضطرهم إلى تحقيق أحلامهم خارجها، إلى أن تفشت هذه الظاهرة بشكل واضح الآن، و هو الأمر الذي جعل الهجرة للخارج هي السبيل الوحيد لتحقيق النجاح مما حمس الباحثين الهاربين للعمل الجاد ليقينهم في أن عملهم سيُقابل بحوافز مادية و معنوية و اجتماعية، أما هذا الأمر فهو مشكوك في تحقيقه في المجتمعات العربية..

رابعاً- الأسباب العلمية و الثقافية

١- وجود علاقات قوية مع الدول الغربية:

إن معظم العلماء هم من الذين درسوا في الدول الأجنبية المتقدمة، و يقدر عدد الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج في الوقت الحاضر بأكثر من ١٠٠ ألف طالب. أثبتت الكثير من الدراسات الحديثة أن ٧٠% من هؤلاء الطلاب لا يعودون

إلى أوطانهم. وتلعب معرفة اللغة الأجنبية في البلد الذي يدرسون فيه دوراً كبيراً في بقائهم هناك، وتأقلمهم مع الحياة الجديدة، فمن الملاحظ أن الذين يعرفون اللغة الإنكليزية غالباً ما يهاجرون لكل من: أمريكا، إنكلترا، كندا، أستراليا. و الذين يعرفون اللغة الفرنسية إلى فرنسا، و الذين يعرفون اللغة الألمانية إلى ألمانيا... و هكذا، أضف لذلك أن الكثير من الدول العربية كانت خاضعة للاستعمار و برغم حصولها على استقلالها، لكن مازالت هناك علاقات اقتصادية و سياسية و علمية قوية مع الدول المستعمرة سابقاً.

٢- ضعف الاهتمام بالبحث العلمي:

لازال الوطن العربي بعيداً عن البحث العلمي و لا يصل نصيب الفرد العربي من الإنفاق على البحث العلمي إلى ٢ دولار سنوياً، بينما نجد أن نصيب الفرد في الدول المتقدمة يتراوح بين ٣٠ – ١٠٠ دولار سنوياً فأكثر.

إن مراكز البحوث العلمية هي محور استقطاب العلماء عادة لأن العالم يجد فيها ضالته و مستقبله و مكاناً يلبي فيه طموحه العلمي و الثقافي و قد يؤمن له موقعاً للإبداع و التطور. بينما يجد في وطنه غياب كل ذلك بل الأكثر من ذلك غياب التخطيط السليم و اعتبار البحوث العلمية ترفاً لا حاجة له. و حتى إذا استطاع العالم أن يجد له مكاناً في البحوث العلمية أو الجامعات في الوطن العربي يلقى الكثير من التنافس و المعوقات التي تجعل منه شخصاً هامشياً. و إذا لم يصادف مثل هذه الصعوبات و هذا نادر، فإنه لا يجد الكادر العلمي و الفني أو التجهيزات و المخابر. كما أن العالم في الوقت الحاضر يمضي قرابة ٩٠% من وقته لملاحقة متطلبات الحياة اليومية، و بالتالي فإن إنتاجيته و مردوده العلمي يكون ضعيفاً و متواضعاً[١٧]...

من ناحية أخرى يؤكد الدكتور **محمد أبو الغار** [١٨] أن هناك أزمة ملموسة في تمويل البحث العلمي في مصر والعالم العربي، حيث لا تتوفر ميزانيات كافية لإجراء البحوث العلمية المتطورة و كذلك عدم توافر مكافآت مجزية للباحثين و أساتذة الجامعة مما يجعلهم يسعون إلى المكان الذي يحقق لهم إمكانية البحث العلمي بحرية.

خامساً – الأسباب الشخصية

حتى تتم الهجرة لا بد من توفر ثلاثة شروط على الأقل:

أ- الوطن الأصلي الذي يرغب المهاجر الهجرة منه.

ب- الوطن الجديد الذي يرغب المهاجر الهجرة إليه و يقبله هذا الوطن.

ت- توفر الرغبة و القناعة لدى المهاجر.

لقد أجريت دراسة في مصر للتحري عن الأسباب الشخصية لامتناع المبعوثين عن العودة إلى الوطن الأم. تبين منها أن ٤٥% منهم لا يعودون بسبب الالتحاق بعمل في الخارج، ٢٣,٧% للزواج من أجنبيات و ٦,٨% للقيام بتدريب عملي، ٨,٢% للاستمرار في دراسة أعلى من المطلوب، ٦,٨% لتغيير مجال الدراسة، ٩,٦% للفشل في الدراسة [١٩].

هذا، ومن أهم الأسباب الشخصية لهروب النخب العلمية ما يلي [٢٠]:

١- ضعف بعض الباحثين وانعدام الثقة لديهم بإمكانية إفادة أوطانهم الأصلية.

٢- التعود على أسلوب الحياة في البلاد التي درسوا فيها.

٣- الظروف العائلية التي تطرأ على الباحث في المهجر و بخاصة إذا تزوج أجنبية.

٤- يرتبط طول زمن الهجرة بسن الطالب الذاهب للدراسة في الخارج، و قد تبين أن السن المبكرة ١٨ – ٢٠ سنة تؤدي غالباً إلى عدم عودة الطالب إلى وطنه الأصلي.

٥- مدة الدراسة في الخارج: لقد أشارت الكثير من الدراسات بأن الطالب الذي يمضي أكثر من ثلاث سنوات دراسة في الخارج عرضة لعدم عودته لوطنه أكثر من غيره.

٦- إذا لم يكن الطالب قد أنهى خدمته العسكرية، فإنه يخاف أن يضيع جزءاً من حياته في الخدمة العسكرية التي تكون عادةً طويلة.

٧- كلما ازداد ارتباط الطلاب باختصاصهم قل اهتمامهم بعودتهم إلى وطنهم غالباً.

٨- ضعف الاتصال بين الطلاب و سفاراتهم في الخارج التي لا توضح لهم تطور بلادهم و تأمين فرص عمل لهم و لا تكون وسيلةً فعالةً لربط الطالب ببلده.

٩- اعتناق الطالب لمبدأ سياسي مخالف لبلده يجعله يخاف من العودة، كما أن الطالب الذي يعتنق مبدأ سياسياً مخالفاً للدولة التي يدرس فيها غالباً ما يؤدي إلى عودته إلى وطنه.

١٠- تغلب الأنانية و حب الذات على بعض الطلاب يجعلهم يختارون الطريق الأقصر و الأكثر نفعاً مادياً و معنوياً.

١١-ضعف تربية و تعويد الطالب في بلده و عدم القدرة على جعله مرتبطاً في بلده تحت أية ظروف كانت و العودة إلى وطنه مهما كانت الأوضاع مغرية في الخارج.

خسائر هروب النخب العلمية

إن خطورة هروب النخب والكفاءات، تبرز بمسألتين أساسيتين:

١- التكلفة التاريخية التي تتكبدها المجتمعات العربية في تكوين وتعليم الباحث حتى وقت هجرته.

٢- التجفيف لمعين التطور والتقدم في شتى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية [٢١]

أما عن حجم ظاهرة الهروب وتكلفتها المالية، فإن حجم الظاهرة بالغ الخطر.. الأرقام متكاثرة ومرعبة.. !

طلاب غائبون: فذكرت دراسة لمركز الخليج للدراسات الاستراتيجية أن ٤٥% من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم [٢٢]، في حين تقول الدراسة الأخيرة الصادرة عن جامعة الدول العربية أن ٥٤ % من الطلاب العرب الذين يدرسون فى الخارج لا يعودون إلى بلدانهم و أن ٣٤ % من الأطباء الأكفاء فى بريطانيا من العرب كما أن هناك ٧٥ % من الكفاءات العلمية العربية بالفعل فى ثلاث دول تحديداً أمريكا و بريطانيا و كندا [٢٣].

وتشير منظمة الهجرة العالمية إلى أن١٥% من خريجي الأقسام العلمية– في أوروبا وأمريكا – استسلموا للهجرة الدائمة، وأن ٣٠% من الطلاب بقوا حيث هم، وأن ٢٧ ألف عربي يحملون درجة الدكتوراه غادروا بلدانهم إلى أوروبا وأمريكا، وأن هذا

obeikandl.com

الرقم وصل إلى ٣٢ ألفاً في عام ٢٠٠٠م. وأن هناك ٤١٠٢ عالم مسلم في مختلف علوم المعرفة في مراكز أبحاث غربية مهمة! [٢٤].

ومن ناحية أخرى تشير بعض الدراسات والأبحاث إلى أن حجم من يعودون من البعثات الحكومية السورية ٥% فقط، ففي عام ١٩٩٨م بلغ عدد الموفدين السوريين للخارج من جامعة دمشق وحدها ٣٣٢ طالباً، عاد منهم لسوريا بعد انتهاء دراستهم ١٨ طالباً فقط [٢٥].

من وراء البعثات: أما مصر فهي أكثر الدول العربية معاناة من هذه المشكلة، حيث قدر عدد من تخلف من مبعوثيها إلى أمريكا في العودة إليها في فترة ١٩٧٠ – ١٩٨٠ بأكثر من ٧٠% [٢٦].. و تشير آخر إحصائيات الجهاز المركزى للتعبئة العامة و الإحصاء فى هذا الإطار إلى أن الكفاءات و العقول المتميزة المصرية يوجد منها ٣١٨ ألفاً في الولايات المتحدة من بينهم ٤٧ مصرياً يحملون درجات أقلها الماجستير في طب الجراحة و جراحة القلب و ٣ في الطب النووي و ١٠ في العلاج بالإشعاع و ١٩ في طب المناعة و ٣٦ في علوم السموم أي ١١٥ في مجتمع الطب بالإضافة إلى ١٩٧ في مجتمع الهندسة منهم ٤٢ في مجال المؤثرات الميكانيكية و ٣٠١ فى تخطيط المدن و الكباري و السدود و ٥٢ في الهندسة الإلكترونية و الميكرو إلكترونيات و ٢٠ في الهندسة النووية و ٣٨ في استخدامات أشعة الليزر و ١٤ في تكنولوجيا الأنسجة كما يوجد ٩٢ عالماً في مجتمع العلوم الأساسية أي الفيزياء الذرية و الكيمياء و الجيولوجيا و طبيعة الزلازل و الفلك و علوم الفضاء و البيولوجيا و الميكروبيولوجيا و استخدام الأشعة السيزمية كما يوجد ٢٤ في مجتمع الزراعة و تكنولوجياتها و ٨٦ عالماً فى مجال العلوم الإنسانية أما عن كندا فيوجد بها ١١٠ آلاف بينما يوجد ٧٠ ألفاً كفاءة في أستراليا و٣٥ ألفاً في بريطانيا و٣٦ ألفاً في إيطاليا و١٢ ألفاً فى إسبانيا و٦٠ ألفاً في اليونان[٢٧].

تخصصات نادرة: ولقد هاجر ٤٥٠ ألف مصري من حملة المؤهلات العليا من الماجستير والدكتوراه – برز منهم ٦٠٠ في تخصصات نادرة جداً – كما بلغ عدد المهاجرين إلى الخارج منها وحدها ٣ ملايين و ٤١٨ ألفاً. وعن مصر أيضاً فقد غادرها ١٠ آلاف مبرمج إلى الدول الغربية خلال السنوات الماضية، ٣ آلاف منهم ذهبوا إلى أوروبا في الوقت الذي يعاني فيه السوق المصري من نقص المبرمجين؛ حيث السوق هناك بحاجة إلى ما بين ٣٢ – ٣٥ ألف مبرمج كمبيوتر [٢٨].

وإذا كان هذا نموذجاً للدارسين والباحثين والعلماء الذين لم يعودوا؛ فالمثال الآخر من العراق لمن عادوا إلى بلدهم واضطروا بعد ذلك للمغادرة تحت ضغط الحصار والقصف والقتل، فقد غادر العراق بين عامي ١٩٩١ و ١٩٩٨م أكثر من ٧٣٥٠ عالماً تلقفتهم دول أوروبية وكندا وأمريكا، منهم ٦٧% أساتذة، و ٢٣% كانوا يعملون في مراكز بحثية في العراق، وكان قد درس منهم ٨٣% في جامعات أوروبية لكنهم عادوا إلى بلادهم، والباقون كانوا درسوا في جامعات أوروبا الشرقية أو في الدول العربية وعادوا أيضاً، ثم اضطروا للمغادرة أو الهروب من بلادهم مرة أخرى خلال سنوات الحصار والقصف والقتل من قِبَل أعداء الأمة [٢٩].

وتشير الإحصاءات الإجمالية إلى أن ٧٥% من العاملين في الشركات العالمية في مجال تنمية البرامج العربية هم من العقول العربية العاملة في برامج الكمبيوتر. وثمة إحصاءات أخرى تقول إن المصانع الكبرى في فرنسا وألمانيا تضم ٨٠% من أصحاب المهارات الفنية من أبناء شمال إفريقيا، ومن الأتراك الأكراد، ومصر، ولبنان - وتشير منظمة الهجرة العالمية إلى أن إفريقيا تفقد سنوياً ٨٠ ألف عالم وخبير في جميع المجالات، وهناك تقارير تفيد أن ٨%من مجموع القوة العاملة العربية هاجرت، وأن ٢٠% من مجموع الأطباء هم الآن خارج المنطقة [٣٠] !

هذا، وقد كشفت بعض التقارير؛ أن مصر لديها ما لا يقل عن ٨٢٤ ألفاً " ثمانمئة وأربعة وعشرون ألف مهاجر من الكوادر العلمية المتخصصة "، مهاجرون هجرة دائمة.. أما الهجرة المؤقتة فإن حجمها لا يقل عن مليون و٩٠٢ ألف شخص، وأهم الدول العربية المصدرة للشباب: اليمن ومصر والأردن ولبنان وسوريا - وفق إحصاءات منظمة العمل الدولية - وقد بلغت الهجرة الصافية في اليمن في الفترة (١٩٩٤-٢٠٠٠) للفئة العمرية (٢٠-٤٩ سنة) بلغ حجمها ٨١,٣٦٧ بينما في مصر بلغ حجم الهجرة الصافية في الفترة (١٩٩٦-٢٠٠٠) للفئة العمرية ذاتها ٣٧٤,٥٨٨ من الأشخاص. وفي الأردن بلغت الهجرة الصافية ٧٢,٩٣٤ وفي لبنان بلغت ٣١,٨٠٨ [٣١].

من ناحية أخرى، تشير الإحصاءات إلى أن مصر قدّمت نحو (٦٠%) من العلماء العرب والمهندسين إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ولقد أبرزت إحصائية الجهاز

المركزي المصري للتعبئة والإحصاء أن هناك في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ١٠٤١ مصريا يعملون في التخصصات الحرجة والإستراتيجية[٣٤] ..

وبالجملة.. فإن ظاهرة هروب النخب العلمية إلى البلدان الأوروبية، وصلت إلى ما يقرب من ٢,٦ مليون شخص، جلهم يحمل خبرات وكفاءات علمية وفنية مهمة[٣٣].

الخسارة المالية:

ومن الناحية المالية نشير إلى أن مصر تتكلف ١٠٠ ألف دولار لإعداد الفرد الواحد من الهاربين، وأن المبعوث للحصول على الدكتوراه في الطب الإكلينيكي يكلف الدولة ٧٥٠ ألف جنيه؛ أي ثلاثة أرباع مليون جنيه، وأن مصر خسرت ٥٠ مليار دولار بسبب عمليات الهروب هذه؛ أي أن الغرب وعن طريق استقبال المهاجرين حصل من مصر على أكثر من ديونها له البالغة حالياً نحو ٢٧ مليار دولار!

هذا، وقد أكد التقرير الذي أصدرته الجامعة العربية عام ٢٠٠١ أن العالم العربي خسر ٢٠٠ مليار دولار، خلال عام واحد (٢٠٠١)، بسبب هروب الكفاءات العلمية والعقول العربية للدول الأجنبية [٣٤].

ووصف تقرير الجامعة العربية – التقدم العلمي والتكنولوجي الإسرائيلي على العرب بأنه "كارثة جديدة تهدد مستقبل الشعوب العربية"، مؤكداً أن إسرائيل تفوقت في السباق العلمي مع العرب عن طريق إغراء العلماء الأوروبيين والأمريكيين، وتوطينهم داخل إسرائيل، في الوقت الذي تتزايد فيه ظاهرة هروب العلماء العرب إلى الخارج، وفشلت الدول العربية حتى الآن في استعادتهم، أو الاستفادة منهم [٣٥].

هذا، ولقد حذر تقرير الجامعة العربية من خطورة هذه الظاهرة على مستقبل الأوضاع الأمنية والسياسية والاقتصادية للدول العربية، بعد أن احتلت إسرائيل المرتبة ٢٤ بين الدول المتقدمة، والمرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة في مجال الأبحاث والقدرات العلمية، وكذلك المرتبة الرابعة بعد اليابان وأمريكا وفنلندا في استيعاب التطورات التكنولوجية.

وأشار التقرير [٣٥] إلي أن الدول الغربية هي المستفيد الأكبر من احتضان أكثر من ٤٥٠ ألف عربي من حملة الشهادات والمؤهلات العليا، حيث تستخدم قدراتهم في دعم مشروعاتها التكنولوجية.

ولفت التقرير النظر إلى أن اليونسكو نبهت في أحد تقريرها العلمية إلى هذا التدني العلمي العربي مقابل إسرائيل ودول العالم الأخرى، إذ أشار التقرير إلى تدني نصيب الدول العربية من براءات الاختراع التكنولوجي على مستوى العالم، بينما بلغ نصيب أوروبا من هذه البراءات ٤٧,٤ وأمريكا الشمالية ٣٣,٤ في المائة واليابان والدول الصناعية الجديدة ١٦,٦ في المائة..

أطراف الظاهرة وتأثيراتها

ثمة ثلاثة أطراف تساهم في حدوث هذه الظاهرة[٣٦]:

الطرف الأول- هو الدول الطاردة.

الطرف الثاني- هو الدول المحفزة والسارقة.

والطرف الثالث- هو الفرد الهارب.

غير أن الجانب الأهم هو: لماذا الطاردة طاردة؟ ولماذا المحفزة والمستقبلة تبذل كل منها جهدها، وتصل إلى حد استخدام القوة المسلحة والقتل في تحقيق ذلك؟ ولماذا الهارب الفرد على هذه الدرجة من العلاقة مع أمته من ناحية، ومع الدول الخصم من ناحية أخرى؟

- **في جانب الدول الطاردة**؛ فإن الأسباب التي تتناولها المقالات والأبحاث متعددة ومتنوعة ومختلفة؛ منها:

١ - أن هناك ضعفاً في ميزانيات البحث العلمي: حيث تشير الإحصاءات إلى أن ميزانيات البحث العلمي العربي لا تتعدى ٠,١٦٦٦ % من الناتج القومي، بينما النسبة في الغرب ٣,٥ % من الناتج القومي، وأن الدول العربية تنفق دولاراً واحداً على الفرد في البحث العلمي، بينما تنفق الولايات المتحدة ٧٠٠ دولار على الفرد، وفي الدول الأوروبية ٦٠٠ دولار.. إلخ. وتشير الإحصاءات إلى أنه بينما تنفق الدول العربية على التسليح - التقنية الجاهزة - ٦٠ مليار دولار؛ فإنها لا تنفق على الجامعات أكثر من ٦٠ مليون دولار!

٢ - وقد انعكس ذلك على عدد المراكز البحثية وعدد الباحثين؛ حيث تشير الإحصاءات إلى أن عدد مراكز البحث العربي لا تزيد عن ٦٠٠ مركز، وأن عدد

obeikandl.com

الباحثين العرب لا يزيد عددهم عن ١٩ ألفاً، بينما عدد الباحثين في فرنسا وحدها ٣١ ألفاً يعملون في ١٥٠٠ مركز بحثي.. وبينما كل مليون عربي يقابلهم ٣١٨ باحثاً علمياً؛ فإن النسبة في أوروبا تصل إلى ٤٥٠٠ باحث لكل مليون شخص؛ أي أكثر من ١٥ ضعفاً.

٣ – التعامل مع البحث العلمي بمنطق الوظائف الإدارية؛ حيث تشير الإحصاءات إلى ١% فقط من ميزانيات الجامعات العربية يتوجه إلى البحث العلمي، وفي المقابل فإن أمريكا تتجه ٤٠% من ميزانيات الجامعات فيها إلى البحث العلمي.

٤ – عدم توفر الحريات الأكاديمية والسياسية، ودخول المحسوبية والرشوة في عمليات تعيين الباحثين، وتدني أجور العلماء والفنيين العرب، في حين يجري إغداق الأموال بسفه غير محدود على الفنانين والمطربين.. إلخ!

٥ – عدم التصدي للمشكلات الإدارية والفنية؛ حتى إن بعض الجامعات العربية ترفض معادلة درجات علمية صادرة في الغرب بالدرجات العلمية الصادرة منها.

– وفي جانب الدول المحفزة للهجرة والمستقبلة:

١ – هناك الإغراء التقني الذي توفره الشركات العالمية لهؤلاء الخريجين؛ حيث توجد أحدث المعامل والإمكانيات الهائلة للإنفاق على الأبحاث.

٢ – وهناك الرواتب المجزية دون شرط أو تمييز.. (المبرمج يحصل على متوسط ٦٠٠ ألف دولار سنوياً).

٣ – وهناك التقدير والاحترام لمؤهلات وقدرات العلماء، وليس المثل الأعلى هو الراقصات والمغنيين.

– وفي جانب الأفراد الهاربين:

١ – هناك الرغبة في نيل العلم وتحقيق الأبحاث العلمية، ونيل الدرجات العلمية التي تلقى اعترافاً دولياً.

٢ – وهناك الرغبة في رفع المستوى الاجتماعي والحياة في مجتمعات تقدر أبحاثهم وعلمهم، وتجزيهم مالياً.

٣ – وهناك اليأس من عملية إصلاح الجهاز الإداري في مجال البحث العلمي في الدول العربية ، واليأس من إمكانية تحقيق حريات البحث العلمي في إطار إهدار الحريات السياسية في المجتمع.

٤ – الانبهار الحضاري بالغرب، وإنجازاته، وفرص الحياة فيه.

٥ – وهناك افتقاد المناعة في التعامل مع الخصوم والأعداء الحضاريين والعقائديين.

كيف نفهم القضية؟

تلك هي خريطة الظاهرة: الطارد، والجاذب، والمطرود (المنجذب أو الهارب).

ويؤكد طلعت رميح أن الجانب الأهم هو تناول الظاهرة من زاوية أسباب المرض لا أعراض المرض، فكل ما أشير إليه سابقاً في الدول الطاردة هو أعراض لمرض، وكذا الأمر نفسه بالنسبة للدول الجاذبة؛ حيث ما ذكرناه هو المظهر وليس الجوهر، والسؤال هو: لماذا دولنا طاردة؟ أو لِمَ تستمر خسارتها لنخب مجتمعاتها دون أن تحرك ساكناً؟ وبالنسبة للعلماء الهاربين فالسؤال هو: لِمَ فضل العلماء والباحثون بل والسياسيون الهاربون فكرة الحل الفردي؟ ولِمَ فقدوا مناعتهم في التعامل مع الأعداء والخصوم؟ وفي الوقت نفسه وعلى الجانب الآخر السؤال هو: لماذا يتعامل الغرب مع أي دولة عربية وإسلامية تبدأ العمل في مشروع نهضوي يكفل توفير ظروف أفضل للتنمية والبحث العلمي – بإجراءات الحصار التقني والاقتصادي والسياسي، ويصل الأمر إلى قصف المنشآت العلمية واغتيال العلماء؟

إن هوية القضية وجوهرها لا يمكن فهمه من خلال الجوانب الفنية التي تساق من قبل الكتابات التي ترى الأمر في جوهره مالياً أو تقنياً، أو حتى يتعلق بخطورة الظاهرة على جوانب التطوير والتنمية، وإنما من فهم جوهر الظاهرة، وجوهرها أنها قضية سياسية وحضارية وعقدية، قضية صراع ممتد ومتعدد المجالات.

إن جوهر القضية هو فكرة الصراع لمنع العالم الإسلامي من امتلاك التقنيات الحديثة، أو في تطوير مجتمعاتها سياسياً وإدارياً، وفي القلب منها مسألة سرقة أو استنزاف العقول، وفي القلب منها استخذاء النظم العربية والعربية في المواجهة، وفي القلب منها لجوء العلماء والباحثين إلى الهرب من أوطانهم.

وكيف يفهمها الغرب؟

يبين طلعت رميح أن الغرب يفهم القضية على أنها إعادة لإنتاج التخلف في العالمين العربي والإسلامي، فهو يستقطب النخب العلمية والفكرية والسياسية التي بإمكانها تطوير هذه المجتمعات على جميع المستويات – من وجهة نظره –. ويفهمها على أن هذه النخب هي القادرة على تقديم رؤية دقيقة للمجتمعات العربية والعربية؛ بدءاً من فهم هذه المجتمعات لغزوها فكرياً وسياسياً واقتصادياً، أو حتى لفهم أذواقها في السلع؛ أي كتعزيز للمشروع الاستعماري. ويفهمها على أنها وسيلة توفر المليارات وتدر ملايين الدولارات سنوياً للخزانات الغربية، وتنتهي نتائجها بالإجمال لصالح الاقتصاد الغربي؛ حيث يربي العرب النخب التي لديهم في الجامعات الغربية، ويدفعون مقابل ذلك المليارات، ثم يقوم الغرب بتوظيف هذه الكفاءات لصالح الاقتصاد والمجهود الحربي والسياسي والثقافي الغربي، وينظر إلى القلة الذين يعودون الى أوطانهم على أنهم سفراء جيدون لنمط الحياة الغربي في الشرق العربي والإسلامي.

ومن ثم فإن الغرب يدرك المضمون الحضاري الشامل لهذه الظاهرة، على ضد الفهم التقني والمحدود في معظم الكتابات العربية.

ومن جراء هذا الوعي بأهمية تلك الظاهرة؛ تكفي الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة رفعت عدد من تمنحهم بطاقة الإقامة (جرين كارد) من ٩٠ ألفاً للمتخرجين في مجالات التقنية العالية في عام ١٩٩٨م إلى ١٥٠ ألفاً في عام ١٩٩٩م، و ٢١٠ في عام ٢٠٠٠م، لقد فتحت أمريكا بصدور قانون الهجرة عام ١٩٦٥م كل الأبواب وبكامل إمكاناتها لعناصر التفوق في العالم لتصب في مصلحتها؛ الأمر الذي أدى إلى تضاعف قوتها العلمية والبحثية ومن ثم قوتها الاقتصادية والعسكرية.. لقد كان القانون الجديد للهجرة من أذكى القوانين؛ إذ استند إلى إكساب الجنسية على أساس المهارات وإتقانها، ومن جراء هذا الوعي يرفض كثير من الكتاب الغربيين العمليات العنصرية التي تجري ضد طلاب العلم العرب والمسلمين في الغرب حالياً من منطق الصراع الحضاري.

مؤشرات إيجابية:

ثمة مؤشرات إيجابية في هذه القضية، وللأسف من الطرف (الجاذب) دون أن تكون من الطرف (الطارد) حتى الآن، لكنها ربما تكون نصف خطوة ولو على الأقل من باب ألا يجد العلماء العرب المسلمين أن ليس أمامهم سوى أن يعودوا إلى أمتهم ومجتمعاتهم للدفاع عن علمهم ومكانتهم داخل مجتمعاتهم.. أن يعودوا ليجاهدوا ويثابروا من أجل دفع الحكومات إلى الرشد، وتحقيق المصلحة العامة للأمة بدلاً من الاستسلام إلى الهجرة والهروب والحلول الفردية.

المؤشرات الإيجابية قادمة من هناك من الطرف الآخر - أي من قبل المجتمعات الغربية نفسها - حيث تجري عمليات التضييق على الطلاب والعلماء العرب؛ حتى عاد الآلاف منهم، بل إن المستقرين لم يعد أمامهم فرصة لاستمرار الحياة في المجتمعات الغربية كما كان الحال في السابق.

والسؤال الأهم الآن ليس هو التشهير بالمجتمعات الغربية باعتبارها مجتمعات طاردة، ولكن السؤال هو: كيف ستتعامل الحكومات والمجتمعات الغربية مع هذه الكفاءات العائدة؟ وهذا هو السؤال نفسه الذي يجب أن يطرح بصدد رأس المال العربي والإسلامي النازح من الغرب؛ إذ لا يكفي أن نتشفى في هؤلاء الذين تركوا أوطانهم و لم يقدروا أن المال مال الله، فباتوا اليوم مهددين بمصادرة أموالهم.. السؤال هو: ماذا سنفعل معهم؟

ماذا سنفعل مع العقول العائدة؟ هل تذهب للدواوين الحكومية أو أن هناك إمكانيات خلاَّقة للاستفادة من علمهم ويكفي ما ضاع؟

إن أهمية ذلك تأتي أيضاً من أن طموح الدراسة في الجامعات الغربية، والانبهار بالحضارة الغربية؛ قد بدأ يتبخر في أذهان الشباب العربي والإسلامي، وبات الآلاف منهم يفكرون في العودة، عاد على سبيل المثال ٢٤ طالباً من بين ٦٢ طالباً من دولة الإمارات - كانوا التحقوا حديثاً بجامعة ولاية كاليفورنيا -؛ بسبب الممارسات العنصرية ضدهم، وحملات القبض والتفتيش والتحقيق والاحتجاز والتنصت، وفحص البيانات الشخصية، وحتى القتل [٣٧].

آثار ونتائج هروب النخب

تلعب ظاهرة هروب النخب دوراً مهماً في كل من الدولة المصدرة لهذه الطاقات والدول المستقبلة لها. إن حالة هروب النخب هي – في معظم الأحوال – باتجاه واحد من المجتمعات العربية إلى الدول الأوروبية والغربية،لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية و كندا و أستراليا و بقية الدول الصناعية، و هي تترك آثاراً سلبية على المجتمعات العربية ، التي تعتبرها عملية غير أخلاقية – وغير شرعية أحياناً – و أنها تستنزف الموارد البشرية التي هي بحد ذاتها متواضعة كماً و نوعاً في الوطن العربي.

أولاً- الآثار السلبية لهروب النخب العلمية :

توجد آثار سلبية عديدة لهروب النخب؛ منها تقليص حجم قوى العمل الإنتاجية كمًّا ونوعًا، واستنزاف الكفاءات الضرورية بواسطة هجرة الكفاءات والعقول، التي تمثل اليوم إحدى معوقات التنمية الشاملة المعتمدة على التقنيات والتكنولوجيات المتطورة الضرورية للمجتمعات العربية الصاعدة. كما أحدثت ظاهرة هروب النخب العلمية خللاً وظيفيًّا كبيرًا في مجتمعات البلدان العربية المصدرة للشباب، خصوصًا ذلك الفراغ الكبير في العمالة الداخلية: زراعة – صناعة – خدمات، وأثر سلبًا على كافة القطاعات الاقتصادية، وخصوصًا القطاع الزراعي [٣٨].

هذا، وما تخسره المجتمعات العربية المصدرة – للشباب – فهو كبير جداً، فمن هذه الخسائر،على سبيل الأمثلة لا الحصر، مايلي [٣٩]:

١- الإنفاق الكبير على الباحث العربي، وبخاصة إذا كان يدرس في الخارج و التي قد تتجاوز كلفة الإنفاق على الواحد عشرات آلاف الدولارات.

٢- معظم المهاجرين من الشباب و بالتالي إذا استمر نزيف الأدمغة للخارج فإن الدولة المصدرة لا يبقى لديها سوى الأطفال و المسنين أي مجموعة الناس المستهلكة فقط.

٣- الأضرار الشديدة التي تصيب خطط التنمية و تخلف الاقتصاد الوطني في ظل تزايد سكاني كبير.

٤- حرمان مراكز البحوث و الجامعات من العلماء العرب، إذ يقدر عدد طلاب الجامعات في الوطن العربي بأكثر من ٢ مليون طالب و هم بحاجة إلى ٢٠٠ ألف أستاذ،وهذا العدد غير متوفر أصلاً.

٥- حرمان المجتمعات العربية من إنتاجية الباحث في وطنه و التي تقدر بـ ٥٠ ألف دولار لكل عالم، و أن ديمومة عطاء العالم قد تصل إلى ٤٠ سنة، مما يعني خسارة الوطن ٢ مليون دولار لكل عالم مهاجر.

٦- الآثار النفسية على الباحثين والعلماء الباقين في أوطانهم الذين يشعرون بأنهم مظلومون، و بالتالي تقل إنتاجيتهم و عطاؤهم في وطنهم.

٧- عدم التوازن الاجتماعي: إن معظم المهاجرين هم من الشباب الذكور و زواجهم من أجنبيات يحرم نساء بلدهم من الزواج و لهذا نرى في الوطن العربي حالياً وجود أكثر من ١٥ مليون امرأة عانس.

٨- حرمان الوطن الأم من احتلالها لمركز متقدم في الحضارة الإنسانية، و ازدياد الفجوة بين الدول الغنية و الفقيرة و بين الدول المصدرة للمهاجرين و الدول المستقبلة لهم، أضف إلى ذلك تأخر المجتمعات العربية بشكل عام.

٩- ربما يساهم العالم في وطنه الجديد بإعادة استعمار وطنه من جديد، و ربما والأفدح من ذلك أن يشارك في إنتاج مواد قاتلة و مدمرة للعنصر البشري مثل المواد النووية و البيولوجية و قد تستخدم تلك المواد ضد وطنه و أبناء جلدته وحتى أعز أقربائه أو ربما يسبب إنتاجه في نهب و سلب ثروات أمته.

١٠- غالباً ينقل المهاجر ممتلكاته للخارج معه فتكون النتائج أفدح على وطنه.

١١- إن ظاهرة هروب النخب العلمية تضعف القوى المنتجة في المجتمع و قدرتها الذاتية على القيادة و التنظيم.

١٢- إن أية أمة لديها كثير من العلماء المهاجرين تفقد القدرة على الإبداع و التطوير و النهوض الفعلي.

١٣- ماذا تستفيد أمة حتى لو ربحت العالم و لكن خسرت علماءها و مفكريها.

نحو استراتيجية عربية لوقف هروب النخب العلمية

إن الخطورة التي تشكلها ظاهرة "هروب النخب العلمية " على المخططات التنموية العربية بصورة خاصة تتطلب إيجاد حلول للحد من هذه الظاهرة تمهيدا لوقفها. والحل الأمثل هو في وضع استراتيجية عربية متكاملة للتصدي لهذه المشكلة. وينبغي أن تشارك في وضع هذه الاستراتيجية كل من جامعة الدول العربية، ومنظمة العمل العربية، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي، والمنظمات العربية غير الحكومية المهتمة بهذا الموضوع، مع الاستفادة من خبرات منظمة اليونسكو ومنظمة العمل الدولية التي تملك خبرات ودراسات جدية حول هذه المشكلة .

ويمكن للاقتراحات التالية أن تشكل إسهاما في هذا المجال[٤٠]:

- إجراء مسح شامل للكفاءات العربية المهاجرة بهدف التعرف على حجمها ومواقعها وميادين اختصاصها وارتباطاتها وظروف عملها.
- صياغة سياسة عربية مركزية للقوى العاملة على أساس تكامل القوى العاملة العربية بحيث تمكن الدول العربية التي تواجه اختناقات في مجال القوى العاملة من التخلص من فوائضها، و تتيح للبلدان العربية الأخرى التي تواجه عجزا في هذا الميدان من سد العجز لديها.
- وضع البرامج الوطنية لمواجهة ظاهرة هروب النخب العلمية وإنشاء مراكز للبحوث التنموية والعلمية والتعاون مع الهيئات الدولية والإقليمية المعنية لإصدار الوثائق والأنظمة التي تنظم أوضاع المهاجرين من العلماء وأصحاب الكفاءات.
- حث الحكومات العربية على تكوين الجمعيات والروابط لاستيعاب أصحاب الكفاءات المهاجرة من بلدانها وإزالة جميع العوائق التي تعوق ربطهم بأوطانهم، ومنحهم الحوافز المادية وتيسير إجراءات عودتهم الى أوطانهم للمشاركة في عملية التنمية والتحديث.
- تنظيم مؤتمرات للمغتربين العرب وطلب مساعدتهم وخبراتهم سواء في ميدان نقل التكنولوجيا أو المشاركة في تنفيذ المشروعات.

- التعاون مع منظمة اليونسكو لإقامة مشروعات ومراكز علمية في البلـــدان العربيـــة لتكوين كادرات وكفاءات عربية واجتذاب العقول العربية المهاجرة للإشراف على هذه المراكز والإسهام المباشر في أعمالها وأنشطتها. والأمر معروض على المجلس..

obeikandl.com

الهوامش

١- قدم المؤلف بحثاً عن " هروب النخب العلمية "، للمؤتمر العالمي العاشر للندوة العالمية للشباب الإسلامي " الشباب وبناء المستقبل"، ٢٠٠٦، تحت عنوان: "هروب النخب الشابة بين واقع النزيف وسبل العلاج ".

٢- انظر: مجلة "التايمز" البريطانية، بتاريخ ١٥ مارس ١٩٦٣م، نقلاً عن:نصير عاروري: **العقول العربية المهاجرة**، بحث مقدم لندوة "العقول المهاجرة" بتاريخ مارس ١٩٨٣م، بالكويت في إطار الإعداد للخطة الشاملة للثقافة العربية التي أنجزتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٣- انظر: "الخطة الشاملة للثقافة العربية"، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦-١٤٠٧، الجزء الثالث، القسم الثالث، ص ١٣٤١.

٤- عمر عبيد حسنة: **البعد الحضاري لهجرة الكفاءات**، كتاب الأمة، العدد٨٩.

٥- انظر: طلعت رميح:" تأملات في هروب النخب من الدول الإسلامية إلى الغرب"، **مجلة البيان**، السنة السابعة عشرة، العدد ١٨٥، المحرم ١٤٢٤هـ مارس ٢٠٠٣م.

٦- انظر: المصدر السابق.

٧- انظر: طلعت رميح: مرجع سابق.

٨- انظر: مذكرة الأمانة العامة للاتحاد البرلماني العربي، حول جوهر الأدمغة العربية، المؤتمر العاشر للاتحاد، الخرطوم، مجلة البرلمان العربي، السنة الثانية والعشرون - العدد الثاني والثمانون: كانون أول/ديسمبر ٢٠٠١

٩- انظر: **شبكة النبأ المعلوماتية**: أسباب هجرة الكفاءات العربية،الاثنين ٢٠٠٣/٧/٧ - ٦من جمادى الأولى١٤٢٤هـ.

١٠-انظر: حليم بركات: هجرة الأدمغة، **مجلة المستقبل العربي**،العدد ٢٦٠.

١١-انظر: **جريدة الدستور**، القاهرة. - ١٢من أكتوبر ٢٠٠٥ م – ٩من رمضان ١٤٢٦هـ.

١٢-انظر: حليم بركات: مرجع سابق.

١٣-انظر: عبد اللطيف زرنه جي: مرجع سابق.

١٤-انظر: **جريدة الدستور**، القاهرة. - ١٢من أكتوبر ٢٠٠٥ م - ٩ من رمضان ١٤٢٦هـ.

١٥-انظر: عبد اللطيف زرنه جي: مرجع سابق.

١٦-**جريدة الدستور**، مصدر سابق.

١٧-انظر: عبد اللطيف زرنه جي: مرجع سابق.

١٨-**جريدة الدستور**.

١٩-انظر: عبد اللطيف زرنه جي: مصدر سابق.

٢٠-انظر: عبد اللطيف زرنه جي: مصدر سابق.

٢١-انظر: شبكة النبأ المعلوماتية: مصدر سابق.

٢٢-انظر: **مجلة الوعي الإسلامي**، العدد رقم: ٤٨١، ٩-١٠-٢٠٠٥م.

٢٣-جريدة الدستور، مصدر سابق.

٢٤-طلعت رميح: مصدر سابق.

٢٥-انظر: المصدر السابق.

٢٦-شبكة النبأ المعلوماتية: مصدر سابق.

٢٧-انظر: جريدة الدستور، مصدر سابق.

٢٨-انظر: طلعت رميح: مصدر سابق.

٢٩-انظر: طلعت رميح: مصدر سابق.

٣٠-انظر: المصدر السابق.

obeikandl.com

٣١-محمد محمود يوسف: "الطيور العربية المهاجرة والمستقبل المجهول"، موقع الجسر www.aljesr.nl، بتاريخ ١٥-١-٢٠٠٦.

٣٢-**شبكة النبأ المعلوماتية**، الأحد ٨ من آيار ٢٠٠٥-٢٩ من ربيع الأول ١٤٢٦هـ **www.annabaa.org**

٣٣-انظر: محمد محمود يوسف: مصدر سابق.

٣٤-انظر: جريدة أخبار الشرق، مصدر سابق.

٣٥-انظر: جريدة اخبار الشرق، مصدر سابق.

٣٦-طلعت رميح: مصدر سابق.

٣٧-طلعت رميح: مصدر سابق.

٣٨-محمد محمود يوسف: مصدر.

٣٩-طلعت رميح: مصدر سابق.

٤٠-انظر: مذكرة الأمانة العامة للاتحاد البرلماني العربي، حول جوهر الأدمغة العربية، المؤتمر العاشر للاتحاد، الخرطوم، مجلة البرلمان العربي، السنة الثانية والعشرون - العدد الثاني والثمانون: كانون أول/ديسمبر ٢٠٠١.

obeikandl.com

(استراحة)

كلمات مليحة !

مهاجرون:

"قال لى عائد من أمريكا حيث كان يجرى جراحة دقيقة: عندما أغلق على باب غرفة العمليات..كان حوالي خمسة أطباء: هندي، ومصري، وسورى، واثنان إيرانيان.. ومثلهم أمريكان!."

(أحمد بهاء الدين: يوميات،٨-٩-١٩٨٩)

أين نحن ؟؟

"أين نحن.. وأين هذا العالم؟

وماذا عن نكتة "نقل التكنولوجيا إلى العالم العربي"؟

إننا نبني أعظم الفنادق.. وأحدث الطائرات.. وأفخم السيارات.. وبعض المصانع "الجاهزة".. ونرى صورها البديعة في الإعلانات وحفلات الإنتاج وقص الشريط الأخضر.. ونظن أننا نقلنا التكنولوجيا..

متى نضع العلماء والخبراء في مكانهم.. ونسمع رأيهم.. ونوفر لهم إمكانياتهم، ولا نخاف منهم؟".

(أحمد بهاء الدين، يوميات، من الفرن إلى الطائرة، ٩-٢-١٩٨٢)

هروب النخب بين الطرد والجذب!

"كان الناس يدلونني على طبيب (في بريطانيا) فاكتشف أنه مصرى! عدد الأطباء المصريين فى إنجلترا صار هائلاً، ومتميزاً كل واحد أخرجته من بلاده قوة جذب إلى

obeikandl.com

حيث الفرصة وإمكانيات التفوق والبحث والتعلم، وقوة طرد عندنا من تمييز أو تحيز. أو محسوبية، أو ضيق الفرص..

عواصم أوروبا غاصة باللاجئين السياسيين العرب والفنيين والخبراء المصريين، أجيال من خيرة الشباب تحملهم عوامل الجذب فى الخارج وعوامل الطرد فى بلادنا أجيالاً بعد أجيال. زبدة المتعلمين نفقدهم سنوياً. "هجرة العقول" لا تقدر بمال. أهم كثيراً من هرب ما يتحدثون عنه من عشرات بلايين الدولارات الهاربة أو المتهربة!"

(أحمد بهاء الدين: يوميات، " من يوميات الإجازة"، ١٤-٩-١٩٨٧)..

لا مناخ لدينا للعقول المهاجرة:

"إن كلاً منا يبحث من وقت لآخر عن المكان الذي يناسبه للعيش ولأن المناخ السائد لدينا لا يتبنى العقول وفى بعض الأحيان يعتبرها عبئاً على حكمه حيث إنها من الممكن أن تنشر الوعي لدى الشعوب المستضعفة ويؤدى هذا إلى بلبلة أركان عرشه فيفضل الحكام الضغط على تلك العقول كي تهاجر أو تنتحر أو تتحدد آفاقها وتركها في دوائر مغلقة تؤدى بها للتخلى عن كل فكر مستنير".

(إبراهيم حمدي، كاتب ومفكر ولاجئ سياسي بالسويد)

" إن لكل عالم وخبير عربي أسبابه الخاصة التي دفعته إلى الهجرة وهذه تضاف إلى الأسباب العامة المشتركة في الوطن العربي، حيث لا احترام للعلم والعلماء ولا تتوافر البيئة المناسبة للبحث العلمي والإبداع وبالتالي فمن الطبيعي أن يبحث العالم العربي وطالب المعرفة عن المكان الذي توجد فيه شعلة الحضارة إذ عندما كان العالم العربي يحمل شعلة الحضارة قبل مئات السنين كان يأتيه المفكرون والخبرات والعقول من كل حدب وصوب، وبما أن شعلة الحضارة انتقلت إلى الغرب فمن الطبيعي أن يهاجر الخبراء والعلماء إلى المراكز التي تحتضن هذه الشعلة"

(فاروق الباز، مجلة الجزيرة، العدد: ١٠٤، الثلاثاء ١٢من رمضان ١٤٢٥هـ)

"العلماء عند العرب ليس لهم قيمة.. أما من يملكون المال والقصور فلهم التقدير والاحترام".

(فاروق الباز، صحيفة الراية)